المنهج التاريخي عند طه حسين
بين التأسيس النظري والممارسة التطبيقية.

أ:عماد شارف .
المركز الجامعي محمد الشريف مساعدية
. سوق أهراس .

ملخص البحث

إن جوهر حديثنا في هذا المقال سيكون حول المنهج التاريخي تحديدا عند طه حسين، وستكون المعطيات التي اعتمدنا عليها بشقيها النظري/السردي والتطبيقي، وذلك محاولة منا لتوسيع الفهم وتوضيح ما جاء به الكاتب والناقد المصري "طه حسين".

Le résumé:

Le but de notre discussion dans cet article est sur la méthode historique précisément chez « TAHA HUSEIN » .

Et les données dont nous avons basé sur laquelle dans son aspect théorique, narratif et appliqué, pour élargir la compréhension et pour s'éclairer se qu'il a observé l'écrivain Egyptien « TAHA HUSEIN ».

أصول النظرية النقدية عند طه حسين

ينتمي "طه حسين" (١٨٨٩-١٩٧٣) إلى مدرسة فكرية وأدبية خلدت اسمها في تاريخ الأدب العربي الحديث. وينبئ الفكر النقدي عنده على ركيزتين ،فأما الأولى فقد نبعت من الثقافة العربية ،وأما الثانية فمواردها إلى الثقافة الغربية، ومن ثم فهو مزدوج التحصيل العلمي (1)، وهذا ما يدفعنا للبحث عن روافد الثقافة العربية من جهة، ثم الكشف عن الجسور التي انتقلت عبرها الثقافة الغربية إلى فكر"طه حسين ".

١- الأصول العربية :

يعد "الأزهر " ثاني محطة علمية قصدها "طه حسين" ،بعد كتاب "عزبة الكيلو" (مسقط رأسه) .ولقد توجه إلى الأزهر عام ١٩٠٢م وفيه التقى بأستاذه: "سيد علي المر صفي " وكان له نعم الأستاذ (2) ومن هنا يمكن القول أن "طه حسين"قد شب وترعرع في أحضان الثقافة العربية، وكان لأستاذه "سيد بن علي المر صفي" اثر واضح في تربية الذوق الفني لديه، بفضل ما أخذه عنه من المعارف النقدية .

ويشيد" طه حسين " بفضل أستاذه قائلا ((أستاذنا الجليل سيد بن علي المر صفي ،اصح من عرفت بمصر فقها في اللغة ،وأسلمهم ذوقا في النقد ،وأصدقهم رأيا في الأدب، وأكثرهم رواية للشعر، ولا سيما شعر الجاهلية، وصدر الإسلام ... حب الأستاذ ودرسه قد اثر في نفسي تأثيرا شديدا ،فصاغها على مثاله)) (3)

بعد إشادته بفضل "الأستاذ المر صفي"، يطلعنا "طه حسين" على أهم الأسس النقدية التي يعتمد عليها مذهب هذا الأستاذ فيقول ((مذهب الأستاذ المر صفي نافع النفع كله، إذ أريد تكوين ملكة في الكتابة ،وتأليف الكلام، وتقوية الطالب في النقد، وحسن الفهم لآثار العرب، وليس يريد الأستاذ أكثر من ذلك)) (4)

يبدو أن الأستاذ "سيد بن علي المر صفي" ،كان مدينة العلم بالنسبة لـ: "طه حسين "، فيها اكتسب فن القول والكتابة ،وفيها درب ذوقه النقدي، وعن طريق أستاذه هذا اطلع على الشعر الجاهلي وشعر صدر الإسلام، إلا أننا نلمح لدى "طه حسين "روح التمرد والتطلع إلى المزيد ،وذلك من خلال قوله: ((وليس يريد الأستاذ أكثر من ذلك)) (5)، فهو إذن يريد أكثر مما يريد أستاذه، كيف لا وهو

القائل: ((نحن نفهم لنمتلك ،ونمتلك لنتجاوز)) (6)

وبالفعل كان لـ: "طه حسين" ما تغنى، فلقد وجد ضالته فيما دعت إليه الحركة النقدية الفرنسية من رؤى سياقية، تاريخية وبدا هذا التعانق الفكري بين " طه حسين"، والنقد الفرنسي الحديث – في القرن التاسع عشر – أولا في الجامعة المصرية، ثم تعمق أكثر غداة رحلته إلى فرنسا .

٢ – الأصول الغربية :

١– ٢– الجامعة المصرية :

تعرف "طه حسين" على المنهج التاريخي بعد التحاقه بالجامعة المصرية سنة ١٩٠٨ (7) التي استعانت ببعض المستشرقين – الذين ادخلوا المنهج التاريخي إلى الفكر النقدي العربي الحديث، وهذا ما يؤكده " طه حسين" في قوله: ((أنشئ قسم الآداب في الجامعة، ودعي إليها جلة الأساتذة من المستشرقين في ايطاليا وفرنسا وألمانيا، أمثال: (جويدي، نلينو، فييت) وانتسبت لهذا القسم، وأخذت اسمع الدروس فيه)) (8)

لقد استوعب "طه حسين" ما تلقاه من دروس عن المنهج التاريخي في الجامعة المصرية، وتوج ذلك ببحث عنوانه " تجديد ذكرى أبي العلاء " سنة ١٩١٤ م (9). لقد كشفت هذه الرسالة الجامعية عن مدى استيعابه، واهتمامه بالنزعة التاريخية، حيث يورد في مقدمتها قولا صريحا عن طبيعة وأهمية المذهب الذي استحدثته الجامعة المصرية على عهد الأساتذة المستشرقين، وهو مذهب جديد، نافع ومفيد، ويبرز ذلك في قوله: ((والمذهب الذي أحدثته الجامعة في درس الآداب بمصر نافع النفع كله، لاستخراج نوع من العلم، لم يكن لنا به عهد مع شدة الحاجة إليه وهو تاريخ الآداب،تاريخا يمكننا من فهم الأمة خاصة، والأمة الإسلامية عامة)) (10)

يحيلنا هذا القول إلى أن المنهج التاريخي الذي أدخلته الجامعة المصرية، منهج حديث، نافع ومهم وتكمن أهميته في انه يمكن الباحث من التاريخ للأمة من خلال الأدب، وهي مهمة تتجاوز النقد اللغوي العربي، الذي تعلمه " طه حسين " في الأزهر .

٢– ٢– الرحلة إلى فرنسا:

لقد كانت رحلة " طه حسين" إلى فرنسا فرصة ثمينة لتعميق فهمه، وتوسيع مداركه عن المنهج التاريخي، الذي كان قد رصد أولى نظرياته على يد المستشرقين بمصر. توجه " طه حسين" إلى " جامعة مونبيليه" ثم " جامعة باريس" التي اجتاز فيها امتحان الليسانس سنة ١٩١٦ م،وأحرز الدكتوراه عن " ابن خلدون " سنة ١٩١٧م (11).وقد مكنته هذه

الرحلة من سماع دروس الاجتماع عن عالم الاجتماع" دوركهايم" غف بها أي شغف(12). وهذا فضلا عن تأثر " طه حسين " بآخرين أمثال: (سانت بيف، هيبوليت تين، بروتين، و" لانسون") الذي كان شديد التأثر به.

وفي سياق حديثنا عن اثر النقد الفرنسي في فكر " طه حسين" تجدر بنا الإشارة إلى أستاذ جامعي بارز كان بمثابة الأب الروحي الذي نقل عنه " طه حسين " المنهج التاريخي، وهو الناقد :" غوستاف لانسون" Gustave Lanson الذي أصبح له – على اثر ذلك – حضورا قويا في النقد العربي الحديث، ونتيجة لهذا الحضور البارز اعتبره " صلاح فضل " من أكثر الأساتذة تأثيرا في النقد العربي الحديث بقوله: ((انه من أكثر الأساتذة الذين اثروا في النقد العربي ،ويكفي أن نعد من تلاميذه على الأقل طه حسين من الجيل الأول من نقادنا العرب)) (13)

ولقد تجلت الرؤية المعمقة التي حصلها "طه حسين " من الدرس الفرنسي، في كتابه الشهير: "في الشعر الجاهلي" سنة 1926 م، أي أعاد طبعه بعد الإضافة والتعديل، تحت عنوان "في الأدب الجاهلي" ويعزى هذا التعبير في عنوان الكتاب،إلى الضجة العارمة التي أثارها عند صدوره أول مرة والتي دعت إلى حجبه لمدة (14)

يعد كتابه في الأدب الجاهلي، حوصلة للدرس التاريخي الفرنسي ،ففيه يجانس "طه حسين" بين الذوق والعقل دون أن يتحلل من قوى التاريخ، كما يعمل فيه الشك العلمي ((الديكارتي، وهذا الذي فهمناه من كلام " احمد كمال زكي " عن الكتاب، إذ يقول: ((لقد كان كتاب " طه حسين" (في الأدب الجاهلي) بشارة بمولد الناقد الذي يعتمد المنهج الذوقي التاثري ،بعدما ينخل مادته ويتحقق منها، أما قوام هذا الفكر، فهو عقلي عندما يصبح عملا، دون أن يتحلل من قوى التاريخ، ودون أن يجاوز جم نشاطه حدود الحياة الاجتماعية، وهو قد يشك ولكنه الشك الديكارتي ،والناقد يمكن له أن يلائم بين الشك وما يذهب إليه، صنيع " سانت بيف" وهيبوليت تين")) (15) وقبل إبراز عناصر المنهج التاريخي عند " طه حسين " يجدر بنا عرض أهم أفكار الحركة التاريخية في فرنسا .

بنية المنهج النقدي عند "طه حسين"

يبني المنهج النقدي عند "طه حسين " على ثنائية ضدية (علم/ فن) وهذا تجاوبا مع طبيعة الأدب، الذي يقتضي منا الدراسة العلمية إلى جانب القراءة الذوقية. ولإجلاء عناصر هذا المنهج، ينبغي تحديد مفهوم الأدب عند "طه حسين"، ثم إبراز الخطوات الإجرائية التي يلوذ بها هذا المنهج في مستوى التطبيق .

I. مفهوم الأدب عند "طه حسين":

1) مدخل إلى المرآة:

يتكرر مصطلح المرآة عند "طه حسين" بصورة لافتة للنظر، ويتجلى هذا التكرار في كتاباته النقدية منها والأدبية حيث وسم عناوين كتبه ومقالاته به، ونذكر منها – على سبيل المثال لا الحصر –: كتابية: ("مرآة الإسلام "، "مرآة الضمير الحديث") كما وسم به بعض العناوين الفرعية مثل " مرآة الغربية "، في كتابه " خصام ونقد" .ولقد حدد " طه حسين" مفهومه للأدب من خلال المرآة التي تتخذ بعدين مختلفين تبعا لاختلاف المقولات النقدية التي استقى منها هذا المفهوم: (نظرية التعبير الرومانسية التي تجعل الأدب مرآة للذات المبدعة والنظرية الاجتماعية التي تجعل الأدب مرآة للمجتمع) ونلاحظ أن " طه حسين " إلى جانب تركيزه على المفهوم المراوي للأدب يعني أيضا بالجانب الفني التشكيلي، ولكننا سنركز على الجانب المراوي في بعديه الذاتي والاجتماعي .

2) البعد الذاتي: (مرآة الذات)

يرى " طه حسين" أن الأدب مرآة للذات، ويوكل إليه وظيفة تصوير الذات المبدعة بكل أبعادها (النفسية، العقلية، الدينية، الاجتماعية .....)، ومن ثم يغدو الأدب أيقونة تصور الأديب اصدق تصوير، وهذا ما يكشف عنه قوله ((هو مرآة لصاحبه)) (16) تعود مرآة الذات عند " طه حسين " – بلا ريب – إلى نظرية التعبير الرومانسية، التي تربط الأدب بالعالم الداخلي للأديب المبدع، وتجعل الأدب وسيلة للتعبير عن خلجات صاحبه وأحاسيسه، ومن ثم فالأدب مرآة لمكونات الأديب (17) ويجسد حضور مرآة

الذات عن " طه حسين"، اثر أستاذه " سانت بيف" الذي يعد من ابرز النقاد الذين عنوا بشخصيات الأدباء واعتمدوها في الدراسة الأدبية .

3) البعد الاجتماعي: (مرآة المجتمع)

يعتبر"طه حسين" الأدب مرآة للمجتمع، وهو الأساس الثاني الذي يشكل مفهوم المرآة عنده، وتفسير هذا الكلام هو أن الأدب أيقونة للمجتمع وصورة صادقة له وعن وظيفة الأدب الاجتماعية يقول " طه حسين": ((وهو مرآة لعصره وبيئته كلما عظم حظه من الجودة والإتقان، وهو بحكم هذا متغير متطور قابل للتجديد)) (18) تنطلق مرآة المجتمع في أصلها – عن التفسير الاجتماعي للأدب الذي مثلته نظرية الانعكاس في القرن التاسع عشر (19)، وهذا الذي عبر عنه " هيبوليت تين " في القانون الجبري (بيئة – جنس– عصر)

ويمكننا القول: أن " مرآة المجتمع " عند " طه حسين" هي ثمرة اطلاعه على نظرية "تين" الاجتماعية، إلا أن " طه حسين " لا يقف عند التفسير الاجتماعي للأدب (سبق وعرضنا مرآة الأديب) وهذا ما دفعه لانتقاد نظرية " تين"، إذ يقول: ((ذلك لأنه مهما يقل في البيئة والزمان والجنس، ومهما يقل في تطور الفنون الأدبية، فستظل أمامه عقدة لم تحل بعد ولن يوفق هو لحلها، وهي نفسية المنتج في الأدب، والصلة بينهما، وبين آثارها الأدبية)). (20) يحيلنا هذا القول على أن " طه حسين" جاور بين مرآة المجتمع، بما يكشف عن تمثله لأفكار " سانت بيف" و" تين" لمجانسة بينهما في مفهومه للأدب، كما يجدر الإشارة إلى اثر " برونتيير في منهج " طه حسين " عامة وفي مفهوم للأدب على وجه الخصوص، إذ يقول: ((وهو بحكم هذا متغير متطور قابل للتجديد)) (21) إلا أن " طه حسين " عدل من تطويرية برونتيير التي تقوم على التحول ومفارقة الأصل، وهو في هذا يتقاطع مع أستاذه " لانسون " الذي يقر بالتطور في الزمن والتاريخ دون مفارقة الأشياء لأصولها

إن ازدواجية المرآة عند " طه حسين " (مرآة الذات، مرآة المجتمع) تكشف عن تمثله الواعي لمقولات المستشرقين والنقاد الفرنسيين، وصهرها في بوتقة واحدة هي المنهج

النقدي عنده، وهو الأمر الذي يؤكده " جابر عصفور " حين يقول: ((ويتقبل بعض أفكار " تين" عن الدرس الأدبي، بعد أن يمزجها بأفكار أستاذه في الجامعة " نالينو"، ويتقبل بعض أفكار سانت بيف بعد أن يعقلها بأفكار أستاذه في باريس جوستاف لانسون)) (22)

II.علم النقد :

قبل الحديث عن علم النقد في منهج " طه حسين"، يجدر بنا تحديد مفهوم موجز للعلم.

* مفهوم العلم:

العلم هو الكشف الموضوعي لحقائق الأشياء بشكل منهجي، دقيق صريح ومباشر (23) لقد جسد "طه حسين" روح العلم (الدقة، الموضوعية) في عمل المؤرخ، فماذا عن عمل المؤرخ هذا ؟

1) عمل المؤرخ :

يعد " طه حسين" عمل المؤرخ أولى الخطوات الإجرائية لمنهجه التاريخي، ولقد أطلق عليه " القسم العلمي" والنقد الخارجي" وفيه يعني المؤرخ أساسا بالظروف الخارجية المحيطة بالعمل الأدبي، ويقوم باسترداد الواقع، أو ما أسميناه (عالم الأصل)، فسيكشف النصوص ويحققها وهو في ذلك يستعين بروح العلم(الدقة الموضوعية) ، كما يعتمد على طائفة من العلوم الضرورية التي تساعده على ضبط النصوص وتحقيقها، وللتعرف أكثر على عمل المؤرخ نقد قولا " لطه حسين"، يبرز فيه الخطوات العلمية التي يسلكها مؤرخ الآداب: ((أريد أن ادرس شعر أبي نواس، فانا مضطر أول الأمر إلى أن ابحث عن هذا الشعر، ولهذا البحث المنظم قواعده، وأصوله، فإذا وجدت هذا الشعر، فانا مضطر إلى أن أقراه وأحقق نصوصه وأقارن مقارنة علمية دقيقة بين النسخ التي تشتمل عليه، فإذا استخلصت من هذه النسخ المختلفة والنصوص المتباينة نصا انتهى إليه بحثي واختياري، فانا مضطر إلى أن أقرأ هذا النص قراءة الباحث المنقب الذي يريد أن يفهم يفسر ويحلل ويستخلص ما في هذا

الشعر من خصائص لغوية أو نحوية أو بيانية، فإذا أنا فرغت من هذا كله فاستكشفت النص وحققته وفسرته، واستخلصت خصائصه ومميزاته مستعينا في هذا كله بهذه العلوم المختلفة ..... فقد انتهى القسم العلمي الخالص من عملي مؤرخا للآداب.)) (24)

يجاري " طه حسين" – في عمله هذا – المؤرخ العام الذي ينطلق من تحقيق النصوص واستكشافها، وذلك بردها إلى أصولها، سبتها إلى أصحابها وفقا للخطوات التالية:

أ – البحث عن الأصل الأول للنص الشعري بحثا منظما يعتمد فيه على قواعد وأصول خاصة، مثلا استرداد النسخة الأولى للقصيدة من خلال مقارنة جميع النسخ المتاحة بعضها ببعض

ب- يقارن بين النصوص والنسخ مقارنة علمية دقيقة

ج- يستخلص من جميع النصوص التي تحصل عليها في بحثه النص الأصل الذي يتخذه موضوع البحث والدراسة .

د- يقرا النص الأصل، ويستنبط خصائصه اللغوية والنحوية والبيانية بطريقة علمية ويطبق فيها قواعد جاهزة تنبع عن مرجعيته بثقافة اللغة والنحو والعروض على اعتباران النص المختار نص أدبي وفي هذا يتميز مؤرخ الآداب عن المؤرخ العام

هـ- يحلل النص الأصل، ويستنبط خصائصه اللغوية والنحوية والبيانية بطريقة علمية ويطبق فيها قواعد جاهزة تنبع عن مرجعيته بثقافة اللغة والنحو والعروض على اعتبار أن النص المختار نص أدبي وفي هذا يتميز مؤرخ الآداب عن المؤرخ العام –

يتبدى لنا " عمل المؤرخ" أن الأدب يقوم بدورالوثيقة التاريخية إذ يصور حياة الأديب والمجتمع تصويرا صادقا ولذلك يقتضي من المؤرخ الأدبي، وفق الدقة والموضوعية فماذا عن الموضوعية العلمية في منهج " طه حسين" ؟

2) الموضوعية والنقد:

ورد في حديث " طه حسين" عن حرية الأدب، الإشارة إلى الخطوات العلمية التي ينبغي للأدب أن يصطنعها، حتى يصير علما، ومثلها في: (البحث، والتحليل، والشك،

والرفض، والإنكار) (25)، وتعبر هذه الخطوات في مجملها عن الموضوعية العلمية التي تبناها " طه حسين" في منهجه النقدي – سبق وعرضنا بعضها في عمل المؤرخ – (البحث والتحقيق والمقارنة العلمية الدقيقة، والتحليل والتفسير(26) وهذا الذي يقتضي منا تحديد مفهوم الموضوعية:

ا) مفهوم الموضوعية:

الموضوعية هي: أن يستقبل الباحث عمله خالي الذهن، متجردا من الأهواء ومن لذاتية،وبهذا يكون قد أقام علاقة مباشرة مع موضوع بحثه، دون حائل، والموضوعية في أصلها: اتجاه نقدي ظهر كرد فعل للتأثيرات الوجدانية، والتأملات الميتافيزيقية في القرن الماضي وبداية القرن العشرين، والموضوعية في النقد تعني وصف عناصر الأثر بشكل يتفق مع خصائص وجوده في العالم الواقعي والخيالي (27)

تقتضي الموضوعية الشك في المقولات الجاهزة، وهي بهذا تدفع البحث العلمي إلى التطور والتجديد والتحرر من كل القيود المعرفية السابقة، وفي هذا يورد" طه حسين" قولا يؤكد فيه اصطناعه للموضوعية: ((نعم! يجب حين نستقبل البحث عن الأدب العربي وتاريخه، أن ننسى عواطفنا القومية وكل مشخصاتها.... يجب ألا نتقيد بشيء، ولا نذعن لشيء إلا مناهج البحث العلمي الصحيح)) (28)

ب)الموضوعية والشك:

يعود منهج الشك أساسا إلى الفيلسوف" ديكارت" وهو سمة طبعت البحث العلمي والفلسفي في العصر الحديث(39) وتتمثل القاعدة الأساسية لهذا المنهج في التجرد من كل الحقائق المسبقة واستقبال موضوع البحث بذهن خال من كل علم سابق عن الموضوع ومن ثم كان هذا المنهج دعوة إلى التجديد في مجال العلم والفلسفة، وبالفعل قد احدث تجديدا في علوم وفلسفة العصر الحديث، و" طه حسين " حد أولئك الذين شغفوا بهذا المنهج الجديد ووجدوا فيه مجالا خصبا للبحث العلمي (30)

يعلن " طه حسين " تبنيه لمنهج الشك في منهجه النقدي فيقول: ((أريد أن اصطنع في الأدب هذا المنهج الفلسفي الذي استحدثه " ديكارت" للبحث عن حقائق

الأشياء في أول العصر الحديث)) (31) بعد عرضنا لعمل المؤرخ، وإجلاء مظاهر الموضوعية في منهج " طه حسين" يراودنا سؤال مهم، مفاده: هل الموضوعية في الأدب هي نفسها موضوعية العلوم الأخرى أم أنها موضوعية خاصة ؟

إن الأدب باعتباره فنا يرفض الخضوع الكلي للموضوعية العلمية السائدة في العلوم الأخرى، وهذا ما عبر عنه " طه حسين " في حرية الأدب

3) الموضوعية وحرية الأدب:

إن الحديث عن حرية الأدب يقود إلى قول لطه حسين مؤداه أن الحرية عنصر ضروري لبناء الأدب وتطوره ،يقول: ((هذه الحرية التي تمكنه من أن ينظر لنفسه كأنه كائن موجود، ووحدة مستقلة ليس مدينا بحياته لعلوم أخرى، أو فنون أخرى أو عوامل اجتماعية وسياسية ودينية أخرى أريد أن يظفر الأ ، بهذه الحرية التي تمكنه من أن يكون غاية لا وسيلة)) (32) نستشف من قول " طه حسين " أن الأدب مستقل بطاته، ورغم انه متأثر بمظاهر البيئة والعصر يظل حرا مستقلا، يقصد به أولا وقبل كل شيء إلى تطوق الجمال الفني (33) كما تحيلنا دعوته لحرية الأدب على انه ذو خصوصية فنية تمنحه موضوعية خاصة من دون العلوم الاخرى موضوعية قابلة للتجانس مع روح الأدب الفنية، وفي إقراره لحرية الأدب يكشف لنا – طه حسين–

– عن رفضه لجبرية – تين (جنس– بيئة–عصر)، إذ يقول: ((ليس مدينا بحياته لعلوم أخرى... أو عوامل اجتماعية وسياسية ودينية أخرى)) (34) ويرفض أيضا النظرية الزمنية التي تقسم الأدب وفق العصور السياسية (الجاهلي– الإسلامي– الأموي– العباسي –عصر الانحطاط)، وتجعله رهن آلية زمنية يتطور بتطور السياسة وينحط بانحطاطها، ويتضح رفضه للنظرية الزمنية من قوله: ((فأنت ترى أن الحياة السياسية لا تصلح مطلقا لان تكون مقياسا للحياة الأدبية، وإنما الحياة السياسية كغيرها من المؤثرات، كالحياة الاجتماعية، كالعلم، كالفلسفة تبعث النشاط في الأدب حينا وتضطر إلى الخمول والجمود حينا آخر فلا ينبغي لن يتخطوا واحد من هذه الأشياء مقياسا للحياة الأدبية)) (35)

من خلال هذا القول الأخير، نفهم أن "طه حسين " ينظر للأدب على انه بنية جزئية في بنية كلية هي الثقافة، وهو عنصر من عناصرها مثله في طلك: العلم، السياسة، الفلسفة، الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية ...) و متأثر بهذه العناصر من جهة أخرى، فاعل فيها ومنفعل بها في علاقة جدلية، وهذا ما كشفه تجاور المرايا في مفهومه للأدب، وهو في هذا كله يتقاطع مع أستاذه " لا نسون " في البحث عن الأثر والاستجابة المتبادل بين الأدب والهيئة الاجتماعية حيث يقول: ((انه لا يكفي أن تتبين العلاقة العامة بين الأدب والهيئة الاجتماعية، فنحن لا نقنع بان نرى صورة أو مرآة بل نريد أن نعرف الأثر والاستجابة المتبادلة بينهما)) (36)لقد تكشف لنا من عمل المؤرخ، صفات العالم الذي يلوذ بالدقة والموضوعية في التعامل مع الوثائق التاريخية (النصوص الأدبية)، وهذه صفات يشترك فيها كل مؤرخ الآداب والمؤرخ العام على السواء، إلا أن حديثنا عن حرية الأدب واستقلاليته يدفعنا لإقرار الاختلاف بينهما، ويمكن هذا الاختلاف كما سبق واشرنا في الثقافة الأدبية التي يعتمدها مؤرخ الآداب في استخلاص الخصائص النحوية والبيانية واللغوية والعروضية، ثم أن الأدب فن يقتضي التذوق والاستمتاع بادبيته وشعريته وهذا أي يجعل مؤرخ الآداب مؤرخا وناقدا في الوقت نفسه وهذا ما لا نجده عند المؤرخ العام .

4) المؤرخ ناقدا :

للمؤرخ الأدبي مهمة أخرى يقوم بها وينفرد بها عن المؤرخ العام، وهذه المهمة التي من شانها أن تجعله يتوسط بين عمل المؤرخ العام وعمل الناقد، وعن هذه الوسطية يقول " طه حسين": ((فتاريخ الأدب إذن يجب أن يجتنب الإغراق في العلم كما يجب الإغراق في الفن، وان يتخذ لنفسه سبيلا وسطا)) (37)

يؤكد " طه حسين" في قوله هذا مجانسة بين العلم والفن في منهجه النقدي، فهو عالم حين يستكشف النصوص الأدبية ويضبطها ويحققها ويفسرها من الوجهة النحوية واللغوية، وهو ناقد حين يكشف مواضع الجمال الفني من هذه النصوص (38)

ونحن بصدد الحديث عن الفرق بين المؤرخ الأدبي والمؤرخ العام يجدر بنا استحضار رأي المؤرخ الفرنسي " غوستاف لا نسون " لأنه خير شاهد على المنهج التاريخي، ونلخص

رأيه في هذا القول: ((موضوع التاريخ هو الماضي، ماض لم تبق منه إلا امارات أو أنقاض، بواسطتها يعاد بعثه، وموضوعنا هو الماضي ولكنه ماض باق ،فالأدب من الماضي والحاضر معا.... نحن في موقف مؤرخي الفن مادتنا هي المؤلفات التي أمامنا والتي تؤثر فينا كما كانت تؤثر في أول جمهور عرفها.... نحن بلا ريب نتناول كالمؤرخين كمية كبيرة من الوثائق محفوظة ومطبوعة ليست لها قيمة إلا كوثائق، ولكنها كوثائق نستخدمها للإحاطة بالمؤلفات الأدبية موضوع دراستنا المباشر ولإلقاء الضوء عليها .... ومن ثم ينتج أننا نذهب من بين الكميات الكبيرة من النصوص المطبوعة بكل ما يثير لدى القارئ بفضل خصائص صياغته صورا خيالية، أو انفعالات شعورية أو إحساسات فنية، وبهذا تتميز دراستنا عن الدراسات التاريخية الأخرى، ويتضح أن التاريخ الأدبي ليس علما صغيرا من العلوم المساعدة للتاريخ)) (39)

يتناول لا نسون في قوله هذا مقارنة بين المؤرخ العام ومؤرخ الآداب وفق ما يلي :

1- موضوع التاريخ هو الماضي ،ماض لم تبق منه إلا امارات، وموضوع تاريخ الأدب الماضي ولكنه ماض باق .

2- مؤرخ الأدب يؤرخ للفن ولذلك يراعي التأثيرية في عمله، بينما المؤرخ العام لا نحسبه يتذوق نصوص التاريخ لأنها بعيدة عن الفن أو بالأحرى لان هدفه ليس الأدب في ذاته

3- المؤرخ العام يتناول كمية كبيرة من الوثائق، وكذا مؤرخ الأدب، ولكن مؤرخ الأدب لا يقصدها لذاتها، إنما يستخدمها للإحاطة بالمؤلفات الأدبية .

4- إن مؤرخ الأدب يعني كثيرا بالنصوص التي تثير القارئ ويبحث عن خصائص الصياغة والصور الخيالية، والانفعالات الشعورية والإحساس الفني وهذا لا تجده عند المؤرخ العام .

ولقد قادته هذه المقارنة إلى أن تاريخ الأدب يتميز ويستقل عن التاريخ العام .

بعد المقارنة بين التاريخ العام والتاريخ الأدبي نخلص إلى أن مؤرخ الآداب ملزم بمراعاة الخصوصية الأدبية في عمله كمؤرخ، ومهما استعان بمناهج العلوم الاخرى والمنهج

التاريخي، يظل عمله متميزا كمؤرخ للفن يقتضي منه تذوق وقراءته، وهذا ما يفيدنا به الدكتور الكتاني في قوله: ((التاريخ يختلف عن الأدب من حيث المنهج والمادة والموضوع والمعرفة، وهي لديه عوامل تفصل المؤرخ له، إذ انه ليس ممن شارك فيه أو عايشه أو شاهده أو تأثر به، أي أن المؤرخ العام لا ينطلق أساسيا من واقع لغوي نحياه، ولا يتميز بفنية تثير فينا ما يثيره الأدب، وهكذا يصبح موضوع التاريخ العام هو الماضي ماض لم تبق منه كما يقول لانسون سوى امارات وأنقاض)) (40) ومن هذه الخصوصية الفنية للتاريخ الأدبي، التي ميزته عن باقي الدراسات التاريخية، ننتقل إلى عمل الناقد واستهلاك النص الأدبي .

III. فن النقد:

بعد تتبعنا للقسم العلمي في منهج " طه حسين" نأتي للكشف عن مرحلة استهلاك النص الأدبي، وهي مرحلة تلي استكشافه وتحقيقه التي يبرز فيها الناقد الأدبي العالم المؤرخ، يلوذ بالذوق الفني لكشف أسرار الجمال والمتعة في العمل الأدبي، وفي هذا نقدم قولا لطه حسين فحواه: ((وبدا القسم الفني الذي اجتهد ما استطعت في أن اخفف تأثير شخصيتي فيه ولكني اعتمد فيه سواء أردت أم لم أرد على الذوق، وهذا القسم هو النقد فمهما أحاول أن أكون عالما ومهما أحاول أن أكون " موضوعا " – إن صح التعبير – فلن استطيع أن استحسن القصيدة من شعر أبي نواس، إلا إذا لاءمت نفسي ووافقت عاطفتي وهواي، ولم تثقل على طبعي ولم ينفر منها مزاجي الخاص)) (41)

بعد استرداد النص ينتقل المؤرخ الأدبي إلى ممارسة نقد فني انطباعي يهدف من خلاله إلى استهلاك النص وتحقيق المتعة، ويقيم فيه علاقة علوية مع النص، يجرده من الظروف الاجتماعية ويخرجه من إطاره الزماني والمكاني، ويستمتع به كبنية فنية جمالية، وقوام هذا النقد الفني الذوق، إلا أن "طه حسين" –كما أشار في قوله – يسعى لتخفيف حدة الذاتية عن هذا الذوق وهو هنا يجاري أستاذه " غوستاف لانسون " فيما ذهب إليه عن الذوق المهذب حيث عمد إلى مراجعته وتمييزه حتى يصبح وسيلة للمعرفة (42) كما يتقاطع مع أستاذه الأزهري " سيد بن علي المر صفي" .

يمكننا أن نخلص إلى أن " طه حسين" أسس منهجه عن وعي منهجي وعلمي، استثمر في ذلك المقولات النقدية التي أفرزتها حركة التاريخ الفرنسية في القرن التاسع عشر – ثم صاغها في منهج تاريخي يجانس فيه بين العلم والفن، يأخذ عن التاريخ منهجه دون إغفال الخصوصية الفنية للأدب، وهذا الوعي – دون شك – كان قد ورثه عن أستاذه " غوستاف لا نسون " الذي يتفق معه حد التطابق في منهجه التاريخي.

بعد عرضنا لبنية المنهج النقدي عند " طه حسين " على المستوى النظري، يجدر بنا الكشف عن المسار التطبيقي لهذا المنهج، فإلى أي مدى حقق " طه حسين " أبعاد المنهج التاريخي في الدراسة التطبيقية ؟ وهل وفق في تطبيق الخطوات الإجرائية للمنهج التاريخي ؟

بعدما اجلينا أبعاد المنهج التاريخي عند "طه حسين " على الصعيد النظري، نأتي لنلتمس كيف طبق هذا المنهج ؟ وهل كان واعيا في ذلك ؟

لقد تبنى "طه حسين " الوسائل الإجرائية التي اصطنعها المنهج التاريخي، في دراسته للشعر الجاهلي، وانطلق في ذلك من فكرة أساسية هي: " النص الوثيقة "، حيث الواقع الجاهلي ثم قام بإسقاطه على الشعر الجاهلي، جاعلا التطابق بين عالم الأصل وعالم الصورة معيارا لصدق هذا الشعر .

عمد " طه حسين " إلى البحث عن الحياة الجاهلية بمختلف أبعادها: الدينية والعقلية والاقتصادية والسياسية، واللغوية، والجغرافية، ثم بحث عن هذه الحقائق في الشعر الجاهلي، وانتهى به الأمر إلى تشكيل ثنائية ضدية، أفرزتها المفارق بين عالم الأصل وعالم الصورة .

1– الحياة الدينية:

هي جزء من صورة المجتمع الجاهلي، ثم أن الحياة الدينية تتكون من نحل وديانات عديدة، وهذا ما أفدانا به القران الكريم عن حياة الجاهليين الدينية، والذي قدمه لنا " طه حسين" في قوله: ((فأنت ترى أن القران حين يتحدث عن الوثنين واليهود والنصارى وغيرهم من أصحاب النحل والديانات، أنما يتحدث عن العرب، وعن نحل وديانات ألفها العرب)) (43)

إذن الأصل في الحياة الدينية عند العرب الجاهلين هو تعدد الديانات والنحل، فلنبحث عن هذه الحقيقة في شعر الجاهليين على اعتبار أن الشعر صورة لأصل سابق عنه في الوجود، وعاكسا لحياة البيئة والعصر، كما قال " طه حسين" .

إننا لا نلمس في الشعر الجاهلي، شعورا دينيا لدى العرب الجاهليين وكأني بهم، شواذ من دون البشر، .ين خاصية إنسانية لا ينبغي لأمة أن تعيش حياتها دون دين مهما اختلف نوعه وطريقته وعن خلو البشر الجاهلي من الشعور الديني يخبرنا " طه حسين" قائلا: ((فأما هذا الشعر الذي يضاف إلى الجاهليين فيظهر لنا حياة غامضة جافة بريئة ،أو كالبريئة من الشعور الديني القوي والعاطفة الدينية المتسلطة على النفس والمسيطرة على الحياة العملية ..... أو ليس عجيبا أن يعجز الشعر الجاهلي كله عن تصوير الحياة الدينية للجاهلين)) (44)

2– الحياة العقلية لدى العرب الجاهلين:

تبدو الحياة العقلية عند العرب الجاهليين، على مستوى من القوة، يتجلى ذلك في قوتهم على الجدال والخصام، ولهذا نرى " طه حسين " يعلن هوة بين ما اخبرنا به القران عن العقلية العربية، وبين ما حوته تلك القصائد الجاهلية، فيقول: ((ولكن القران لا يمثل الحياة الدينية وحدها، وان يمثل شيئا آخر غيرها لا نجده في الشعر الجاهلي، يمثل حياة عقلية قوية، يمثل قدرة على الجدال والخصام، انفق القران في جهادها حظا عظيما)) (45) ، ومن قول " طه حسين" نستشف قصور الشعر الجاهلي عن تصوير العقلية الجاهلية كما جاءت في القران، بل وعلى العكس من ذلك صورها من الغلظة والخشونة ما ينفي عنها كل قوة وقدرة في الجدال، وفي هذا يقول " طه حسين ": ((أفتضن هؤلاء القوم من الجهل والغباوة والغلظة والخشونة، بحيث يمثلهم لنا هذا الشعر الذي يضاف إلى الجاهليين)) (46) بينما القران على العكس من ذلك ((إذ يمثل الأمة العربية على أنها كانت كغيرها من الأمم القديمة، فيها الممتازون المستنيرون الذين كان النبي يجادلهم .... وفيها العامة الذين لم يكن لهم حظ في استنارة وامتياز، والذين كانوا موضوع النزاع بين النبي وخصومه)) (47)

3- العرب وعلاقاتهم بالأمم الأخرى:

علاوة على الحياة الدينية، والعقلية، نتقل للحديث عن علاقات المجتمع الجاهلي مع غيره من الأمم المجاورة، ولقد حاول " طه حسين " استنباط هذه العلاقات من القران ثم بحث عنها في الشعر الجاهلي على اعتبار انه صورة لواقع الجاهليين يخبرنا القران الكريم بان العرب في جاهليتهم، كانوا على اتصال بالأمم الأخرى من روم وفرس، ثم ينبئنا عن عناية الجاهليين من العرب بسياسة هذين الأمتين، ويكشف لنا عن المكانة الاقتصادية الهامة التي نالها العرب من خلال تجارتهم، ولكن كل هذه الحقائق تغيب تماما في الشعر الجاهلي الذي يصور الأمة العربية، امة معتزلة تعيش في بيداء قاحلة، لا تتعدى علاقتها القبائل العربية فيما بينها، وقد عبر"طه حسين" عن المفارقة بقوله ((القران يحدثنا بان العرب كانوا على اتصال بمن حولهم من الأمم بل كانوا على اتصال قوي، قسمهم أحزابا وفرقهم شيعا .... لم يكن العرب إذن كما يظن أصحاب هذا الشعر الجاهلي معتزلين، فأنت ترى القران يصف عنايتهم بسياسة الفرس والروم، وهو يصف اتصالهم الاقتصادي بغيرهم من الأمم))(48)

فلقد أفادنا القران الكريم بحياة اقتصادية للعرب في جاهليتهم، في حين عدل الشعر الجاهلي عن تصوير هذا الجانب المهم من حياتهم .

4- البنية الاجتماعية للعرب الجاهليين:

ني المجتمع على تفاوت طبقي، إذ يتشكل من طبقتين: الأغنياء والفقراء، وهذا ما صوره لنا القران الكريم مع إبراز الصراع القائم بين هذين الطبقتين ثم دور الإسلام في الدفاع عن الضعفاء والفقراء يقول " طه حسين ": ((ا فتظن أن القران كان يعني هذه العناية كلها بتحريم الربا والحث على الصدقة وفرض الزكاة، لو لم تكن حياة العرب الاقتصادية الداخلية من الفساد والاضطراب بحيث تدعو إلى ذلك)) (49) وبالموازاة مع ير القران للطبقة التي سادت المجتمع الجاهلي، والصراع بين الفقراء والأغنياء نلحظ إغفال الشعر الجاهلي لهذه الحقائق والتغاضي عن تصويرها وهذا ما يؤكده طه حسين: ((فالتمس لي هذا أو شيئا كهذا في الأدب الجاهلي، وحدثني أين تجد في هذا الأدب شعره ونثره ما يصور لك نضالا ما بين الأغنياء والفقراء)) (50)

5- البيئة الجغرافية الجاهلية:

تستوقفنا نصوص عديدة في ثنايا القران الكريم، تتحدث عن البحر، تثني هذه النعمة، ومدى انتفاع الإنسان الجاهلي منها، فهل هناك من الشعر الجاهلي، ما يصور لنا البحر، ويفيض في الحديث عنه ؟

يغلب على كل الشعراء – في وصف البيئة الجاهلية – ذكر البيداء والفلاة (51) في حين لا نجدهم يتناولون وصف البحر، بالرغم من أن القران اثبت وجوده وأهميته في بيئتهم. ويعقب " طه حسين " على إغفالهم للبحر هذا، فيقول: ((أما القران فيمن على العرب بان الله قد سخر لهم البحر، وبان لهم في هذا البحر منافع كثيرة مختلفة .... ومن عجيب الأمر أنا لا نكاد نجد في الشعر الجاهلي ذكر البحر أو الإشارة إليه فإذا ذكر فذكر يدل على الجهل لا أكثر ولا اقل ،فهل كان العرب في الجاهلية يجهلون البحر حقا ولا يصطنعونه في مرافقهم ؟)) (52)

6- الأدب الجاهلي واللغة:

ينهج " طه حسين " في بحثه عن اللغة الجاهلية نفس الطريقة التي رصد بها مظاهر الحياة الاجتماعية السابقة، على اعتبار أن اللغة وعاء ثقافي وخصوصية اجتماعية، وبالتالي ينبغي أن تكون اللغة الأدبية لمجتمع ما مرآة تعكس اللغة المتداولة بين أفراده والخاصة بهم، إلا أن الأمر كان خلاف الذي وضع له، فان الأدب الجاهلي لا يعكس اللغة الجاهلية وهذا ما انتهى إليه " طه حسين " من رأي بعد تأمل الشعر الجاهلي وفي هذا يقول: ((فهذا الأدب الذي رأينا انه لا يمثل الحياة الدينية والعقلية والسياسية والاقتصادية للعرب الجاهليين بعيد كل البعد عن أن يمثل اللغة الجاهلية، ولنجتهد في تعرف اللغة الجاهلية هذه ما هي)) (53)وفي خضم بحثه عن اللغة الجاهلية انطلق " طه حسين " من فكرة أساسة اتفق عليها الرواة، وهي أن العرب ينقسمون إلى قسمين: قحطا نية وعدنا نية، فأما القحطانية فهم العرب العاربة، فطروا على العربية، وأما العدنانية فهم العرب المستعربة لأنهم اكتسبوا العربية عن القحطانية (54)، وكانوا يرون أن لغة قحطان تفرق تماما عن لغة عدنان خاصة وان القحطانية هي الأصل في استعمال العربية، إلا أن القدماء لم يحاولوا الكشف عن الفرق

بين اللغتين، بل مضوا يفرقون بينهما ويقرون بالاختلاف ويجعلون لكليهما شعراء وخطباء على اعتبار أن العدنانية اكتسبت عربيتها عن القحطانية ولان لكليهما لغة واحدة هي لغة القران (55)

ولكن "طه حسين " لم يقف عند هذا التمييز العقيم بين لغتي قحطان وعدنان، بل يمضي إلى ابعد من ذلك حين بحث في جوهر الاختلاف الذي كان سائدا بينهما – قبل الإسلام – متبنيا في بحثه عن حقيقة اللغتين فكرته المر آوية التي تفرض عليه تشكيل عالم الأصل (حقيقة اللغة الجاهلية) وعالم الصورة (لغة الأدب الجاهلي) وسعى من خلال بحثه هذا للمقارنة بين العالمين، جاعلا التطابق بين اللغة الجاهلية، ولغة الأدب الجاهلي معيار صدق هذا الأدب، ولكن الأمر في اللغة لم يكن مفارقة الأصل للصورة فحسب وإنما هو اشد غرابة وتناقضا، حيث صادف " طه حسين " في بحثه عن حقيقة اللغة الجاهلية تأثرا عكسيا بين لغة القحطانيين، وأدبهم حيث وجد في أدب القحطانيين صورة للغة العدنانية، عوض أن يكون هذا الأدب عاكسا للغة القحطانية التي ينتسب إليها .

يرى " طه حسين " أن هذا الأمر من اصطناع القحطانيين للغة العدنانية في أدبهم أمر غير مبرر وهو في هذا الصدد يطرح تساؤلا يبرز فيه غرابة الموقف، يقول: ((كانت اللغة العربية الفصحى إذن لغة أدبية للعرب وغير العرب بعد ظهور الإسلام، فأما قبل ظهور الإسلام فقد نحب أن نتبين كيف استطاعت لغة العدنانية أن تكون لغة أدبية للقحطانية)) (56)

ينبئنا " طه حسين" بان الإسلام وحد لغة العرب الأدبية، ولكنه يريد أن يعلم اللغة الأدبية لكل قبيلة قبل ظهور الإسلام، فوجد لغة القحطانيين غائبة في أدبهم، ووجد بدلا من ذلك لغة العدنانيين فتساءل عن ذلك ثم انتقل بنا إلى أمر آخر عن العدنانيين والقحطانيين، وهو انه لو جاز لإحدى اللغتين أن تصطنع لغة الأخرى كلغة أدبية، لكانت القحطانية هي لغة العدنانيين الأدبية على اعتبار المكانة والسيادة التي تميزت بها القحطانية عن العدنانية وفي هذا يقول " طه حسين ": ((ونحن نعلم أن السيادة السياسية الاقتصادية التي من شانها أن تفرض اللغة على الشعوب قد كانت للقحطانيين دون

العدنانيين .. فما العلة إذن في أن تفرض لغة قوم لاحظ لهم من سيادة ولا حضارة على قوم هم السادة وهم المتحضرون ؟)) (57)

أراد " طه حسين " أن يجلي لغة القحطانيين في أدبهم، وان يجعل أدب العدنانيين مصور للغتهم وفق المفهوم المراوي للأدب، ولكنه اصطدم بحقيقة غريبة تجعل العلاقة عكسية بين اللغة الأصلية واللغة الأدبية للقحطانيين، ثم أذهله تأثر بلغة الضعيف.

لقد رفض " طه حسين " فكرة تأثر القحطان بلغة العدنان، واصطناعها لغة أدبية لهم، غير مبال بتلك الآراء التي بررت هذا الأمر وفق عامل الهجرة، وقالت بأنه يمكن لشاعر قحطاني أن ينسى لغته الأولى لدى هجرته إلى قبيلة عدنانية وبالتالي يتخذ لغة هذه القبيلة لغة أدبية له، مستشهدين في رأيهم هذا " بامرئ القيس " الذي هاجرت قبيلته من بلاد القحطانيين إلى ربوع العدنانية (58)، ولقد قلب " طه حسين " هذا الطرح مستعيضا عنه بالتقسيم وفق الموطن الجغرافي، وانتهى في الأخير إلى أن هناك لغتين: لغة الشمال، ولغة الجنوب ولا ينبغي أن نقبل ما يأتينا عن أهل الجنوب بلغة الشمال، وعن هذا يقول " طه حسين ": ((وإذن فمن الحق على الذين يريدون أن يحددوا المعنى الذي يدل عليه لفظ اللغة العربية الفصحى أن يعتمدوا في هذا التحديد على الموطن الجغرافي .... ونحن إذن بإزاء لغتين: إحداهما كانت قائمة في الشمال ... والأخرى كانت قائمة في الجنوب ... ونحن لا نسرف ولا نشطط حين ننكر ما يضاف إلى أهل الجنوب من شعر وسجع ونثر قيل بلغة أهل الشمال قبل الإسلام)) (59)

7- اللهجات الجاهلية:

بعد اللغة الجاهلية ينتقل " طه حسين " للبحث عن اللهجة الجاهلية، التي تتمايز على صعيد اللغة الواحدة سواء القحطانية أو العدنانية والأمر هنا يتجاوز الشعر الجاهلي القحطاني غالى الشعر الجاهلي العدناني الذي اخبر الرواة عنه انه تنقل في قبائل عدنان بين ربيعة وقيس وتميم ويعبر عن هذا الاختلاف

بقوله: ((فالرواة مجمعون على أن قبائل عدنان لم تكن متحدة اللغة، ولا متفقة اللهجة قبل أن يظهر الإسلام فيقارب بين اللغات المختلفة، ويزيل كثيرا من تباين اللهجات)) (60)

لقد تناول " طه حسين " اللهجات الجاهلية، كما سبق وتناول اللغة واعتبر اللهجة ممارسة لغوية لقبيلة معينة، ولذلك ينبغي أن تنعكس في أدب مستعمليها، وكما إن اللغة الأدبية صورة للغة الجاهلية عند القحطانيين فيما رأينا لا بد وان تكون اللهجات العدنانية المختلفة حاضرة في أدبهم، ومن ثم، تخلق تباينا في الشعر العدناني، على اعتبار أن لكل لهجة خصوصية في الألفاظ والمعاني وعلى مستوى الروض والقافية وكذلك المذهب الكلامي (61) والذي من شانه أن يبرز في شعرها وأدبها، وبالتالي نستطيع أن نميز بين شعر القبائل العدنانية المختلفة تبعا لاختلاف اللهجات، ولكن في الحقيقة لا نكاد نلمح هذا التباين لدى قراءتنا للشعر العدناني، ولا ينتابنا أي إحساس بالاختلاف بين شعر قبيلة وأخرى، وهنا يقول"طه حسين":(ولكننا لا نرى شيئا من ذلك في الشعر العربي الجاهلي، فأنت تستطيع أن تقرا هذه المطولات أو المعلقات التي يتخذها أنصار القديم نموذجا للشعر الصحيح (62) تستطيع أن تقرا هذه القصائد السبع دون أن تشعر فيها بشيء يشبه أن يكون اختلافا في اللهجة أو تباعدا في اللغة أو تباينا في مذهب الكلام)) (63)

وفي الأخير يبدو أن الشعر الجاهلي لم يصور لنا حقيقة الحياة الجاهلية، سواء الحياة الاجتماعية وأبعادها أو حتى على مستوى اللغة، والذي انتهى بطه حسين إلى نتيجة وان أسخطت عواطفنا وغيرت أفكارا عششت في أذهاننا، فإنها ترضى العقل والعلم، وهي أن هذا الشعر الجاهلي موضوعا ومحمولا على أصحابه بعد الإسلام، ويعلن " طه حسين " هذه النتيجة قائلا: ((فلأعد إليه لأقول ما كنت أقول منذ حين، وهو أن من الحق علينا لأنفسنا وللعلم أن نسال: أليس هذا الشعر الجاهلي الذي ثبت له انه لا يمثل حياة العرب الجاهليين ولا عقليتهم ولا دياناتهم، ولا حضاراتهم، بل لا يمثل لغتهم، أليس هذا الشعر قد وضع وضعا وحمل على أصحابه حملا بعد الإسلام)) (64)

هذا ما انتهى إليه " طه حسين " في دراسة للشعر الجاهلي، أما نحن فهمنا معرفة الوسائل الإجرائية التي اتخذها في دراسته هذه، والتي تحيلنا مباشرة على مقولات المنهج التاريخي الفرنسي التي تبرز أساسا من خلال شرائط النص الوثيقة أو الأيقونة، ومن خلال منظور عالم الأصل والصورة .

لقد اخذ " طه حسين " مرآة المجتمع عن " تين " إلا انه خلصها من الجبرية وزاوج بينهما وبين مرآة الذات التي تعود إلى " سانت بيف " وهذا ما يؤكده بقوله:

((وإذا كان الشعر في لفظه ومعناه مرآة لحياة الشاعر خاصة، ولحياة البيئة الاجتماعية التي يعيش فيها الشاعر بوجه عام، فيجب أن تكون المعاني التي يقصد إليها شعراء الجاهليين ملائمة لحياة البادية في صورها وأغراضها وموضوعاتها)) (65)

8- صورة الشاعر الجاهلي:

يعد " طه حسين " الأديب جزءا من الصورة الكلية للمجتمع، ومن ثمة يذهب لتقصي الحقيقة عن حياة الشعراء الجاهليين، ويستكشف ظروف عصرهم، وبعدها يسقط على شعرهم، وبذلك يشكل مرآة الشاعر الجاهلي، فيما ينتجه من شعر على أساس أن الأدب مرآة للذات .لقد تناول " طه حسين" أولئك الشعراء الذين نالوا الحظوة لدى الرواة، فكثرت الأخبار عنهم، حيث اتخذ أحاديث الرواة عالما لواقع الشعراء في حين تمثل في أشعارهم وقصائدهم عالم الصورة الذي ينبغي أن يصور هذا الواقع اصدق تصوير، فهو القائل: ((فلندع هؤلاء الشعراء، ولنقف عند امرئ القيس وأصحابه الذين يظهر أن الرواة عرفوا عنهم، ورووا لهم الشيء الكثير)) (66)

فلنأخذ إذن شخصية شاعر من ابرز الشعراء الجاهليين، الذين تناولهم " طه حسين " في بحثه، وليكن " امرؤ القيس ". كثيرة هي الأخبار التي وصلتنا عن " امرئ القيس "، وغزيرة هي الأشعار التي نسبت لهذا الشاعر (67)- فيما يقول طه حسين —، وهل يمكننا أن نعد شعره مفتاحا لدراسة شخصيته ؟

بلغنا عن الرواة أن " امرأ القيس" يمني (68) ولكننا لا نجد في شعره ما يعكس نسبه وانتماءه إلى اليمن، فليس في شعره لغة اليمن، بل أن شعره قرشي اللغة، وفي هذا يورد

لنا "طه حسين" قولا يعرب من خلاله عن مخالفة أصل الشاعر لما يحمله شعره أو بالأحرى، لا يحمل شعره صفات وخصائص تحيلنا على نسبه. يقول: ((وهي آن امرأ القيس – إن صحت أحاديث الرواة – يمني وشعره قرشي اللغة، لا فرق بينه وبين القران في لفظه وإعرابه، وما يتصل بذلك من قواعد الكلام، ونحن نعلم – كما قدمنا – أن لغة اليمن مخالفة كل المخالفة للغة الحجاز، فكيف نظم الشاعر اليمني شعره في لغة أهل الحجاز، بل في لغة قريش خاصة)) (69)

إن شعر " امرئ القيس " – كما رأينا – لا يحمل لغة القبيلة التي ينتمي إليها، وليس هذا فحسب بل انه لا يصور لنا حقيقة نسبه إلى أخواله من ربيعة، رغم ارتباط خالية " كليب" ومهلهل " بقصة شهيرة ذاع صيتها في معظم القبائل الجاهلية .

يقول الرواة إن " امرأ القيس " ابن أخت مهلهل وكليب ابني ربيعه، مع العلم أنهما ارتباطا بحرب البسوس الشهيرة التي دامت ردحا من الزمن بلغ أربعين سنة (70) ، إلا أن " امرأ القيس " اغفل هذه القصة (حرب البسوس) في شعره، وتغاضى عنها، رغم ارتباطها الوثيق بأخواله، ولذلك يتساءل " طه حسين " متعجبا :

((فمن العجيب ألا يشير" امرؤ القيس " بحرف واحد إلى مقتل خاله كليب، ولا إلى بلاء خاله مهلهل والى هذه المحن التي أصابت أخواله من بني تغلب، ولا إلى هذه المآثر التي كانت لأخواله علي بني بكر)) (71)

إلى هنا عرض "طه حسين" نسب " امرأ القيس"، وحاول البحث عنه في شعره فإذا بشعره يفارق حقيقة نسبه إلى قبيلته ويخلو من الحديث عن أخواله رغم شهرتهم، فينتقل بعد النسب للحديث عن الرحلة في شعر " امرأ القيس ". يحدثنا الرواة بان " امرأ القيس " زار القسطنطينية، ودخل الحمام مع القيصر، وانه شغف حبا بابنته (72)، فأين نجد صورة هذه الرحلة، وهذا الحب من شعر " امرأ القيس " ؟

إن هذه الحادثة رغم أهميتها في حياة " امرئ القيس " إلا أننا لا نعثر على اثر بارز لهذه الرحلة في شعره وفي هذا يقول " طه حسين ": ((فقد نحب أن نعرف كيف زار " امرؤ القيس " بلاد الروم، وخالط قيصر، حتى دخل معه الحمام، وفتن ابنته، ورأى مظاهر

الحضارة اليونانية في قسطنطينية، ولم يظهر لذلك اثر ما في شعره: لم يصف القصر ولم يذكره، لم يصف كنيسة من كنائس قسطنطينية، لم يصف هذه الفتاة الإمبراطورية التي فتنها، لم يصف الروميات، لم يصف شيئا ما يمكن أن يكون روميا حقا)) (73)

وبعد حديثه عن رحلة " امرأ القيس" يصادف مفارقة الأصل والصورة أيضا، ومن هذا خلص " طه حسين " إلى أن " امرأ القيس " في شعره لم يصور لا نسبه ولا رحلته ولا حتى حبه لابنه القيصر .

وقد انتهى به الأمر إلى الشك في اغلب الشعر الذي نسب لهذا الشاعر، وهذا انطلاقا من التضاد الذي طبع علاقة الأصل بالصورة، ومن ثم فمرآة الشاعر غير صادقة، يفارق الشعر حياة الشاعر وهذا ما يبعث الشك ويبدد الاطمئنان عن ذهن " طه حسين " فيقول: ((وإذن فأينما وجهت فلن تجد إلا شكا: شكا في القصة، شكا في اللغة، شكا في النسب، شكا في الرحلة، شكا في الشعر.)) (74)

لم يصور شعر " امرأ القيس " لغته ولا قبيلته ولا نسبه إلى أخواله ولا رحلته إلى القسطنطينية ولا حبه لابنه القيصر، وهذا ما دفع " طه حسين " إلى نتيجة فحواها: إن أكثر الشعر الذي ينسب إلى " امرأ القيس " محمولا عليه حملا ومختلفا عليه اختلافا (75) إن عناية " طه حسين " بشخصيات الشعراء، وبحثه عن حياتهم، واتخاذ هذا كله مسارا لدراسة شعرهم، يعزى في حقيقة الأمر إلى فكرة طرحها في مفهومه للأدب " مرآة الذات " والتي تعود أصولها إلى الناقد " سانت بيف" الذي عني بشخصيات الأدباء، وسيرتهم الذاتية .

وخلاصة القول هو أن " طه حسين " كان ملتزما بالوسائل الإجرائية التي تبناها عن المنهج التاريخي،وهذا ما كشفت عنه ازدواجية المرآة(مرآة الشاعر، مرآة المجتمع) .

كما يجدر بنا الإشارة إلى أن " طه حسين "في كتابه " في الأدب الجاهلي " اقتصر على البحث الموضوعي العلمي، دون القراءة النقدية الذوقية التي سبق واعتبرها القسم الثاني من بحثه كمؤرخ للآداب وهذا ما يدفعنا إلى تقصي القسم الفني في كتبه الأخرى، نذكر على سبيل المثال: كتابه: " حديث الأربعاء.

الهوامش والمراجع المعتمدة :

(1) عبد السلام الشاذلي: الأسس النظرية في مناهج البحث الأدبي العربي الحديث، ط١، دار الحداثة – بيروت– ١٩٨٩ ص ٣،٧

(2) أنور الجندي: طه حسين حياته وفكره في ميزان الإسلام ،ط٢، دار الاعتصام ١٩٨٨م، ص٢١.

3) طه حسين: تجديد ذكرى أبي العلاء ،ط ٨.، دار المعارف – مصر– ١٩٧٦م، ص٠٥.

(4) طه حسين، م نفسه، ص٧

(5) طه حسين، م. سابق، ص 7.

(6) جابر بن عصفور:المرايا المتجاورة،(د.ط)دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع– القاهرة – 1997 ،ص 16

(7) أنور الجندي: م.نفسه، ص 21

(8) طه حسين: م.نفسه، ص 6.

(9)طه حسين: م. نفسه، ص 7-8

(10) أنور الجندي: م. نفسه، ص 21

(11) أنور الجندي: م.نفسه، ص 31

(12) صلاح فضل: مناهج النقد المعاصر، (د، ط) مكتبة الأسرة ،الهيئة المصرية العامة للكتاب ،1996م، ص 29

(13) احمد كمال زكي: النقد الأدبي (أصوله واتجاهاته)، (د.ط)، دار النهضة العربية للطباعة والنشر – بيروت– 1981م، ص 155

(14) احمد كمال زكي: م. نفسه،ص 155

(16) – طه حسين: في الأدب الجاهلي، ط 1، دار المعارف –مصر – 1969، ص 34

(17) جابر عصفور: م. سابق، ص 44

(18) طه حسين: م. ص 34

(19) شكري عزيز الماضي:محضرات في نظرية الأدب،ط1 ،جامعة قسنطينة، 1984 م، ص 63

(20) طه حسين: م. نفسه، ص 47

(21) طه حسين: م. سابق، ص 32

(22) جابر عصفور: م. سابق، ص 9- 10

(23) ميشال عاصي: الفن والأدب، ط3، مؤسسة نوفل- بيروت- 1980-ص 140

(24) طه حسين: م. سابق،

(25)طه حسين: م. سابق، ص 59

(26) طه حسين: م. نفسه، ص 50

(27) سمير سعد حجازي: النقد الأدبي المعاصر (قضاياه واتجاهاته) ط1، دار الأفاق العربية – القاهرة- 2001م، 137

(28) طه حسين: م. نفسه، ص 68

(29) طه حسين: م. نفسه، ص 67

(21) طه حسين: م. نفسه، ص 32

(30) طه حسين: م. نفسه، ص 68.

(31) طه حسين: م. نفسه، ص 67.

(32) طه حسين: م. نفسه، ص 56.

(33) طه حسين: م. نفسه، ص 59.

(34) طه حسين: م. نفسه، ص 56

(35) طه حسين: م. نفسه، ص 40

(36) لا نسون: م. سابق، ص 411

(38) طه حسين: م. سابق، ص 49

(39) طه حسين: نفسه ص 51

(40) لا نسون: م. سابق ص 400-4001

(40) ميجان الرويلي: المنهج التاريخي للأدب العربي، مجلة: علامات في النقد، ج 12- الرياض- 1994، ص 49

(41) طه حسين: م. سابق، ص 50-51

(42) لانسون: م. سابق، ص 406

43- طه حسين: في الأدب الجاهلي، ص 72

(44) طه حسين: م. سابق، ص 73

(45) طه حسين: م. نفسه، ص 73

(46) طه حسين: م. نفسه، ص 73

(47) طه حسين: م. نفسه، ص 74.

(48) ـ طه حسين: م .سابق، ص 75.

(49) – طه حسين: م. نفسه، ص 76.

(50) – طه حسين: م. نفسه، ص 76.

(52) - طه حسين: م. نفسه، ص 79.

(53)- طه حسين: م. نفسه، ص 80.

(54)- طه حسين: م. نفسه، ص 80.

(51)- طه حسين: م. نفسه، ص 79.
(55) – طه حسين: م. نفسه، ص 84
(56) – طه حسين: م. نفسه، ص 89
(57) طه حسين: م. نفسه ،ص 89
(58) طه حسين: م. نفسه ،ص 90
(59) طه حسين: م. نفسه ،ص 92
(60) طه حسين: م. نفسه ،ص 93
(61) طه حسين: م. سابق ،ص 94
(62) طه حسين: م. نفسه ،ص 93
(63) طه حسين: م. نفسه ،ص 94
(64) طه حسين: م. نفسه ،ص 111
(65) طه حسين: م. نفسه، ص 263
(66) طه حسين: م. نفسه، ص 190
(67) طه حسين: م. نفسه، ص 190
(73) – طه حسين: م. نفسه، ص 201
(74) – طه حسين: م. نفسه، ص 203
(75) – طه حسين: م. نفسه، ص 204
(68) طه حسين: م. سابق، ص 202
(69) طه حسين: م. نفسه، ص 202
(70) طه حسين: م. نفسه، ص 203
(71) طه حسين: م. نفسه، ص 203
(72) طه حسين: م. نفسه، ص 201